بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قديماً قال الرواة : الدُّهاةُ أربعة :

١ ـ معاوية بن أبى سفيان ـ للرَّوِيَّة .

٢ ـ عَمْرو بن العاص ـ للبديهة .

٣ ـ المُغيرة بن شُعبة ـ للمعضلات .

٤ ـ زِيَادُ بن أبيه ـ لكل كبيرة وصغيرة .

ومن يتأمل حياة أولئك الأربعة يجد أنهم بعد أن أسلموا أسندت إليهم مهامّ فى حياة النبى ـ ﷺ ـ وأبى بكر وأصبح لهم وجودُهم على الساحة العربية ، وتلَقَّوْا مبادىءَ الإدارة والسياسة على يد عمر ـ رضى الله عنه ـ وأنجزوا المهام التى أسندت إليهم وقاموا بها خير قيام .

وقد كان من أمرهم فيما بعد أنهم شغلوا الناس ، وواجهوا الفتن والأحداث فى خلافة عثمان وعلىٍّ ـ رضى الله عنهما ـ ثم وطدوا مُلْك بنى أمية حيث كانوا دعائم الدولة الجديدة من حول معاوية ، ولم يُفَرِّقهم إلا الموتُ حين لقى « عمْرو » ربه وهو والٍ على « مصر » من قِبَل معاوية سنة ٤٣ هـ وتبعه « المغيرةُ بن شعبة » وهو والٍ على « الكوفة » لمعاوية سنة ٥١ هـ ثم لقى زياد ربه وهو والٍ على « الكوفة » و « البصرة » معاً لمعاوية سنة ٥٣ هـ أما « معاوية » فقد ظل خليفة للمسلمين حتى سنة ٦٠ هـ .

ومهما يكن من شىء فإن من الصعب أن يحاول المرء متابعة « دُهاة العرب فى الزمان والمكان على ساحة امتدت من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد فارس والروم وحتى شمال أفريقيا منذ إسلامهم إبَّان حياة الرسول ـ ﷺ ـ ومواكبتهم عصر الخلفاء الراشدين وصدر بنى أمية ؛ فإنهم لم يكونوا مجردَ أشخاص ، وإنما كانوا دُهَاةً صنعوا التاريخ ، وتركوا بصماتِهم على صفحاتِه !

إن حياتهم لم تكن حياةً عادية ، فبينما هى تموج بالأسى والهول موجاً ، إذا هى تتفجر عظمة ودهاء وذكاء ، وغلبة وانتصاراً .

وسوف تجد أيها القارىء العزيز أنه ليس من هدفى أن أقدم تاريخاً ذا نهج مدرسى ، ولكننى كنت أبحث عن روح التاريخ فى الوقائع والأحداث حيث يلتقى الورع والدهاء والنصر والهزيمة ، والحلم والعزم ، والشدة واللين !! مُرَكِّزاً على إبراز ما كان لأولئك الأربعة من دهاءٍ فى الإدارة والسياسة !

أنت إذن أمام صور من هذا التاريخ تُبرز الدهاء العربى الذى نفتقده اليوم فى إدارتنا وسياستنا ! فعيب الكثيرين أنهم لا يفكرون إلا لوقتهم ، ولا ينظرون على المدى البعيد إلا إلى مواطىء أقدامهم ، مما كان له أثره فى تخلف مسيرتنا عن ركب الحضارة !

وعيب الكثيرين أنهم لا يفطنون إلى دهاء أعداء الأمة وحِيَلهم ، وألاعيبهم ، ونواياهم الشِّرِّيرة ، ومن هنا نراهم يسقطون فريسةً للأطماع ، ويُصْبحون ألعوبة حتى فى يد الرِّعاع من شُذَّاذ الآفاق ، وأصبحوا كما نرى كريشة فى مهب الرياح ، تلعب بها الأهواء ، وتحركها أنّى تشاء حتى صدق فيهم القول : إنهم كالأيتام فى مأدبة اللئام !

لقد فاتهم أن الزعامة الحقة تقوم على دِعامتين هما :

١ ـ بعد النظر فى استكشاف غوامض الأمور ، وهو ما نُسَمّيه « دهاء » أو كياسة .

٢ ـ أمّا الدعامة الثانية فهى : الاستقامة ، أو التقوى .

فإذا لم تجد « الحقائق أو المصالح » دهاءً يمحق دهاء الطامعين المبطلين المفسدين عَمِيَ على العامة أمرُها ، وظهرت الضلالة والسفاهة مكانها !!

ألم يقل السابقون فى تجاربهم :

« لا يَفلّ الحديدَ إلا الحديد » ، و « من لم يتذأّبْ تأكله الذئاب ! » ، و « إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً » ، و « لا تكن صَلْباً فتكسر ، ولا ليناً فتعصر » ؟!!

وقد يتوهم بعضهم أن الدهاء لا يجتمع مع سلامة الضمير ، والحرص على فعل الخير ! ، ولكنهم أخطئوا ؛ فلقد حذرنا الدين الحنيف من أن نُلْدَغَ من جحر مرّتين ، وأرشدنا إلى استعمال الفطنة ، فالمؤمن كَيِّسٌ فطن .

ويعتقد بعضهم أن العرب أبعد الأمم عن السياسة ، كما قال ابن خلدون فى مقدمته ، وفاتهم أنَّ مراده أن ذلك كان قبل أن يستضيئوا بحكمة الإسلام !!

فلما جاء الإسلام ساسوا الأمم ، وقادوا الشعوب ، ودانت لهم الفرس والروم !!

وفى تاريخنا الإسلامى نماذج لفن الدهاء تكشف عما وراءها من فهم للأمور ، وبعد نظر فى استكشاف غوامضها إلى جانب الاستقامة ، وإرادة الخير العام ومن يُقلّب صفحات التاريخ يجد أمثلة تُحْتَذى ومواقف مازالت تُرْتجى !

نقرأ فى تاريخ الفرس : أن سعد بن أبى وقاص أرسل « المغيرة بن شعبة » إلى « رستم » القائد الفارسى ، فأقبل حتى جلس معه على سريره ، فوثب إليه أتباع رستم وأنزلوه من السرير .

فقال المغيرة : إنا يامعشر العرب ، لا يستعبد بعضنا بعْضاً ، فظننت أنكم تتواسَوْن كما نتواسى ، وكان أحسن من الذى صنعتم ، أن تُخبرونى : أن بعضَكم أربابُ بعض !

اليوم علمت أنكم مغلوبون ، وأن مُلْكاً لا يقوم على هذه السيرة ، ولا على هذهَ العقول !

وإنما قصد « المغيرة » بما صنع ، وما قاله : تعليم القوم « المساواة » التى جاء بها الإسلام ليألفوه ، وإشعارهم بأنهم يعيشون تحت راية تلك الدولة عيش المستعبدين ليجنى من وراء هذا سقوط مكانتها من أنفسهم ؛ فلا يدافعون عنها من صميم أفئدتهم !

« إن القادة والسَّاسَة وممثلى الشعوب لا غنى لهم عن « الدهاء » فى السياسة وبخاصة أولئك الذين يقبضون على زمام « طوائف » اختلفت أهواؤهم سبلاً ، وتفرقت آراؤهم مذاهب .

فإذا رأينا السياسة فى عهد أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ تسير على مناهج من « العدل » واضحة فلأن الرئيس عادل ، ومعظم الأمة على سبيل من الهداية لا تختلف .

وماستقام الأمر لـ « معاوية » مع ما خالط الأمة يومئذ من التفرق فى الآراء إلا لأنه كان يسلك فى السياسة مسالك خفية ، ويركب لها من الطرق الوعرة ما لم يركبه الخلفاء من قبله[1]

ومعاوية هو الذى يقول : «لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، فقيل له : وكيف ذلك ؟

فقال : كنت إذا شدّوها أرخيتها ، وإذا أرخوْها شدَدْتُها .

و «عمرو بن العاص» الذى سمى «أرطبون العرب» هو الذى واجه «أرطبون الروم» على أرض فلسطين حتى هرب من وجهه إلى مصر فراح يغزوها ويلاحقه !

أنت إذن مع أربعة من الدهاة كان لهم شأنهم ! ولا عجب ؛ فقد عاشوا عهد الحروب الأهلية حول الحكومة الإسلامية لمن تكون ؟ وكيف تكون ؟ وعاصروا وقائع «الجَمَل» ، و «صِفّين» و «النَّهروان» حيث انتهت الأُوليَان بإقرار الحكومة فى البيت الأموى ، أما الثالثة فقد أعقبت نشاط الخوارج الذى لم ينقطع بسرعة !

ومهما يكن من شىء فإننا سوف نتابع السلوك السياسى عنيفاً صارماً ، أو ليناً حازماً .

وسوف نواصل الخُطى لنقف على سياسة « مكعاوية » قطب الرحى آنئذ حيث يبدو لنا سياسياً ليّناً واسعَ الحلْم حسن التدبير سَمْحاً ، وقد ظهرت خلاله هذه مع رعيته وخصومه السياسيين ، وتأثر بها ولاته ، وعلى رأسهم :

---

(١) رسائل الإصلاح لشيخ الأزهر الأسبق محمد الخضر حسين .

«المغيرة بن شعبة» ومن بعده «زياد» بالعراق ، و «عمرو بن العاص» بمصر ، فاستطاع بذلك أن يمهد الحكومة لنفسه ولأسرته .

ويالها من متعة يعيشها القارىء مع أولئك الدهاة وقد جمعتهم الدنيا فلم يفرقهم إلا الموت . كيف كانوا يتصرفون ، وكيف كانوا يتعاملون ؟

قال زياد : ما غلبنى أمير المؤمنين إلا فى واحدة : طلبت رجلاً فلجأ إليه ، وتحرّم[1] به ؛ فكتبت إليه : إن هذا فساد لعملى !؛ إذا طلبتُ رجلاً لجأ إليك وتحرّم بك !

فكتب إليه معاوية : إنه لا ينبغى أن نسوسَ الناس بسياسة واحدة ، فيكون مقامنا مقام رجل واحد .

ولكن تكون أنت للشدة والغِلظة ، وأكون أنا للرأفة والرحمة ، فيستريح الناس بيننا !

ألم أقل لك : إنهم كانوا « مدرسة » فى الدهاء ، وأن كل واحد منهم كان له لونه وطريقته ؟ ! فلم يكن كل واحد منهم فى سياسته صورة « طبق الأصل » للآخر كما نقول فى تعبيرنا الحديث !!

لقد تعلموا من « معاوية » أنه لا ينبغى أن يسوسوا الناس بسياسة واحدة حتى لا يكون مقامهم مقام رجل واحد ، بل هذا للشدة والغلظة وذاك للرأفة والرحمة ، فيستريح الناس بينهم !

ومن عجب أنهم كانوا يتفاهمون ويتلاقَون على السياسة العامة للدولة تحت قيادة داهيتهم الأكبر « معاوية » !

وكم نحن بحاجة ماسة إلى دراسة أساليب الدّهاة الأربعة فى إضعاف الجماعة التى كانت تناوىء سُلْطَانهم ..

والتاريخ الإسلامى حافل بالدروس والمواقف التى تعيننا على مجابهة أعدائنا

---

(١) تحرم به : عاشره ، وماكله . وتأكدت الحرمة بينهما .

إن الإغراء بين كُبَراء الجماعات المناوئة بالعداوة يفصم رابطتهم ، ويوقع الخصومة فيما بينهم .

وهو مسلك قد يضطر إليه المصلحون فى تفريق الجماعة التى تتحالف على ما لا خير فيه .

ومن هذا القبيل ما فعله نُعَيْم بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عندما تحالفت قريش وغطفان وبنو قريظة على حرب النبى ـ ﷺ ـ فى واقعة الأحزاب ، إذْ أَلْقَى بينهم ما تقطّع به حبل اجتماعهم على الباطل فانصرفوا خائبين ، وتراجَعَ الدّهَاءُ اليهودى مدحوراً أمام واحد من العرب استخدم دهاءه !!

« وقد يعمل الطامع فى الأمة الغافلة على هذا المسلك كما فى الفتن الطائفية حذرا من أن يتنبه شعورها فيجتمع أمرُها وتُوَجّه إليه قوتها فمن واجب الأمة التى يَرْبِطُها دين أو مصالح وطنية أن تؤكد أواصرَ الإخاء بينها وتجعل المصلحة العامة نُصْبَ أعينها !! »[1] .

ومن أساليب الدُّهاةِ فى القديم أن يسوسوا الجماعة الناشزة بأيدى رجال منهم ذوى حزم ودهاء .

قال عباد بن زياد يصف « زياداً » لعبد الملك بن مروان :

« قدم العراق ، وهى جَمْرةٌ تشتعل ، فسلّ أحقادهم ، وداوى أدواءهم[2] ، وضبط أهل العراق بأهل العراق » .

وهو أسلوب بعيد الشأو ظاهر الأثر قد يأخذ به ذوو السياسة الرشيدة لزيادة تأليف القوم ، وتأكيد الإخلاص فى نفوسهم .

ومثل ذلك ما حدث فى إرسال عمرو بن العاص وندبه لغزوة ذات السلاسل حيث كان أخواله يتأهبون للزحف على المدينة .

ومن الأساليب التى يتخذها الدُّهاة فى وسائل أخذ القوم إلى جانبهم بذل

---

(١) رسائل الإصلاح لشيخ الأزهر الأسبق محمد الخضر حسين .

(٢) جمع داء ، ويطلق على الأمراض النفسية والقلبية .

شيء من المال إلى ذوى النفوذ من رجالهم . وهو ما كان يفعله « معاوية » وبه استطاع مواجهة « علىّ » وأخذ شطر الخلافة على الرغم مما كان لعلى من المكانة الراجحة فى العلم والبيان ، والقرب من رسول الله ـ ﷺ ـ وبذل النفس وبلوغه ، أبعد غاية فى تقوى القلب[1] .

لقد أذن الإسلام فى صرف جانب من الزكاة لأناس قالوا : أسلمنا ، تأليفاً لقلوبهم ، واستدعاء لاطمئنان عقيدتهم . كما قال تعالى : ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ [التوبة : ٦٠] .

إن القوة وحدها لا تستطيع أن تُخمد كل فتنة ، فللدهاء مواضع يظهر فيها فضله على القوة .

منها : دفع الخطر الذى يتراءى شبحه من بعيد بحيث لا يشعر به إلا البصير بما وراء الخبر من شرور ، فقد يكون استعمال القوة فى الشر المتوارى موضع إنكار أو مثار فتنة ، أما الدهاء فيرده ، والنفوس مطمئنة والفتن نائمة .

لا غنى لنا : إذاً عن الدهاء فى جو يسوده الصراع العالمى ، وتتنازعه المطامع والأهواء ، ويحرك سياسته أساطين الدهاء ! يحتاج الولاة إلى الدهاء فى سياسة الجماعات واستبانة الحقوق ويحتاج إليه العلماء فى الدعوة إلى الخير فقد تأتى المواجهة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعكس ما يريد الداعية !

وينتفع الرجل من دهائه عند لقاء الطبقات المختلفة يزن عقول من يلاقونه ويحسّ ما تكنّ صدورهم وتنزع إليه نفوسهم .

وزُبْدة الثقافة كلها فى أقطاب الحكم ، وعظماء الرجال ، إنما تتلخص فى شيء واحد هو : الدراية بالناس ، ونفاذ البصيرة فى شئون الدنيا ، وصدق الخبرة فى دخائل النفس البشرية ، وهو ما نسميه فى أيامنا هذه بـ « الرأى السليم ، والحكمة العملية » .

وكان علىَّ أن أسلك فى سبيل إبراز هذا الجانب الطريق الذى يجعل من الشخصية محوراً تجتمع حوله أقوالها وأخبارها ، بحيث يضم ما تناثر من هذه

---

(١) رسائل الإصلاح لشيخ الأزهر الأسبق محمد الخضر حسين .

الأقوال فى المراجع المختلفة ، فلا يكاد القارىء يفرغ منها حتى يجد لها فى ذهنه صورة واضحة مرتسمة .

إن تجميع الأقوال والأخبار بعضها إلى بعض مما يعين القارىء على تكوين فكرة واضحة عن الشخصية ، وصورة كاملة لها .

وهذا ما أهدف إليه لتكتمل الصورة بين يدى أولئك الذين يتولّون أمورنا ، ويقودون خطانا ، ويواجهون كل يوم دهاة من أعداء الأمة ، علّهم يكتسبون من الدهاء ما يمكنهم من التغلب على دهاء الأمم الأخرى ، كما تغلب أولئك الدهاة على الفُرس والروم !

وقد يقال : إن جودة النظر فى الأمور ، وتقدير وسائل الخير إنما يعود إلى الألمعية وهى موهبة إلٰهية ! فالألمعىّ يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمع !

لكنا نقول : إن التدبر فى سير أعاظم الرجال ، والنظر فى مجارى الحوادث باعتبارٍ مِمّا تقوى به خصْلةُ الدهاء لدى الناشئين من الأبناء .

لهذا كان من واجب المربين والقائمين على تربية النشء أن يصرفوا العناية إلى تغذيتهم بالحديث عن دُهاة الرجال وتنبيههم لما دبروه من وسائل يبتغون بها إصلاحاً أو شرفاً !

ومن حقهم أن يلاحظوا الحوادث التى تظهر من ناحية عرفت بالدهاء ، فيكشفوا غطاءها ، ويقفوهم على بطائنها ؛ ذلك لأننا نريد أن نعد للمستقبل ناشئة تستقيم على هدى الله ، وتخوض معارك الحياة بكياسة وفطنة وفراسة وألمعية تبصر بها مواقع الخير والشر ، فمن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه !

وعلى قدر ما يكون فى دعاة الشعب وقادته من دهاء وتقوى يعلو شأنهم وتستقر حياتهم ، وتثبت فى مواقف الجهاد أقدامهم ، وتتقدم مسيرتهم نحو الرقى والحضارة والخير والسلام .

محمد إبراهيم سليم

القاهرة الكبرى فى : شوال ١٤١٠ هـ
مايو ١٩٩٠ م